الأديب اللبناني رئيـف خـوري في مئويته
مفكر إشتراكي ومناضل قومي ومجاهد فلسطيني

كريم مروة*

يطيب لي أن أستحضر في هذه الأيام سيرة واحد من كبار أدبائنا ومفكرينا، رئيف خوري بمناسبة مئويته، أستحضر سيرته مفكراً إشتراكياً وأديباً وصاحب موقف وطني لبناني وقومي عربي وصاحب موقف أممي في ممارسته للسياسة باسم الإشتراكية التي كان ينتمي إليها فكراً رائداً ومشروعاً إنسانياً كبيراً لتغيير العالم.

ومن غرائب الأمور ودلالاتها أن يصادف غياب هذا الأديب اللبناني الكبير، صاحب المواقف الرائدة في الدفاع عن القضايا القومية وفي مقدمتها قضية فلسطين، في العام ذاته (١٩٦٧) الذي وقعت فيه هزيمة الجيوش العربية في حرب حزيران. وهي الحرب التي خيضت في ذلك العام لتحرير فلسطين من الإحتلال الإسرائيلي، وانتهت بهزيمة أدت إلى احتلال إسرائيل لكامل الأراضي الفلسطينية. لم يعش رئيف ليرى ولادة المقاومة الفلسطينية والبطولات التي ارتبطت باسمها، ولا عاش ليرى النهاية البائسة لتلك المقاومة وليرى المأساة التي يعيش فيها الشعب الفلسطيني في ظل صراعات قادته على المكاسب والمصالح، وفي ظل القهر الذي تمارسه عليه العنصرية الإسرائيلية. ففي صيف ذلك العام الحزين أصيب رئيف خوري بانفجار في الدماغ لم يفلح الطب في مداواة آثاره. فرحل أديبنا الكبير قبل أوان الرحيل غاضباً ومكتئباً. لكأنه أراد ألاَّ يعيش أكثر مما عاش، وألاَّ يعاني أكثر مما عانى، خلال أعوام عمره التي

* كاتب وباحث لبناني

اختصرها الموت المفاجئ. وهي أعوام كان فيها رئيف واحداً من كبار المثقفين العرب، ممن جعلوا الثقافة ميداناً رحباً لمعركة صاخبة لا هوادة فيها من أجل الحرية والتقدم للعرب جميعاً، ومن أجل الدفاع عن تراثهم، ومن أجل انتصارهم على أعدائهم في الداخل وفي الخارج. وإذا كان ميدان نشاط رئيف خلال أربعة عقود من حياته شبه محصور في لبنان وسوريا وفلسطين أكثر من سواها من البلدان العربية، فإنه بالمقابل تجاوز حدود العالم العربي إلى أكثر الأماكن بعداً في الجغرافيا وفي السياسة وصولاً إلى أميركا بالذات، بما في ذلك في أصعب الفترات التاريخية توتراً، الفترة التي سبقت بقليل اندلاع الحرب العالمية الثانية. حمل رئيف معه إلى ذلك العالم الفسيح هموم أمته وأوجاعها ومطامحها مشاركاً في مؤتمر عالمي للشباب عقد في نيويورك توزعت فيه همومه وإهتماماته بين معارضة الحركة الصهيونية من جهة، والحركة الفاشية من جهة ثانية كظاهرتين عنصريتين تهددان العالم المعاصر. ورغم كثرة ما قدمه من إسهامات متعددة الجوانب في الثقافة خصوصاً وفي السياسة كذلك من أجل القضايا العربية كلها، فإن الأجيال الشابة وفريقاً غير قليل من الأجيال السابقة لا تعرف عنه ما تنبغي معرفته. لذلك فإنني سأحاول في هذه الصفحات أن ألقي بعضاً من الأضواء على سيرته الثقافية والنضالية. وهي مهمة توفرها لي معرفتي الجيدة به وبتراثه. وتوفرها لي العلاقة التي ربطتني به على امتداد سنوات عدة، منذ عام ١٩٤٩ حتى العام الذي غادر فيه الحياة.

وُلد رئيف في عام ١٩١٢ في قرية "نابيه" التي تقع في أعالي منطقة المتن من جبل لبنان. كان منذ شبابه الأول متفوقاً في الدراسة. الأمر الذي هيَّأ له فرصة الدخول في الجامعة الأميركية، التي تخرَّج منها في عام ١٩٣٢ بدرجة بكالوريوس علوم في الأدب العربي وفي تاريخ الآداب الشرقية. وكتب رسالة عن الجاحظ ما تزال حتى الآن مخطوطة من بين آثار أدبية أخرى غير منشورة. لكنه لم ينتظر التخرج من الجامعة لكي يمارس نشاطه الأدبي. فقد بدأ ينشر أشعاره الأولى وبعض دراساته في الآداب الشرقية في جريدتين لبنانيتين كان صاحب إحداهما الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير). كان رئيف في ذلك الحين لا يزال في الثامنة عشرة من العمر. تعرَّف خلال دراسته في الجامعة إلى أستاذ أميركي كان يدرِّس مادة التاريخ، وكان يميل إلى الأفكار الإشتراكية. فتأثَّر رئيف به وبأفكاره. وبدأت منذ ذلك التاريخ علاقته بالحركة الإشتراكية وبالشيوعيين اللبنانيين، من دون أن يصبح، حتى وهو في أوج نشاطه الفكري والسياسي باسم الإشتراكية، عضواً ممارساً في الحزب الشيوعي. توجَّه فور تخرُّجه إلى مدينة طرطوس في سوريا ليدرِّس مادة الأدب العربي في مدارسها. وصدر له في ذلك العام (١٩٣٤) أول كتاب من كتبه التي كرسها لتاريخ الأدب العربي هو كتابه "امرؤ القيس". ثم غادر طرطوس السورية إلى مدينة القدس في فلسطين في عام ١٩٣٥ ليدرِّس مادة الأدب العربي في مدارسها. وكانت فلسطين في ذلك العام تغلي وتتهيَّأ للثورة التي اندلعت في العام التالي. اندمج رئيف بالحركة الوطنية الفلسطينية، وتعرَّف إلى عدد من قياداتها من فلسطينيين وعرب.

وكان من بينهم الدكتور خليل البديري الشخصية الفلسطينية المعروفة. وكان من بينها أيضاً الأديبان اللبنانيان سليم خياطة ورجا حوراني. وحين انفجرت الثورة الفلسطينية في عام ١٩٣٦ كان رئيف مناضلاً في صفوفها. شارك مع خليل البديري ورجا حوراني في صياغة مطالب الإنتفاضة. وهي تتلخص بمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ومنع بيع الأراضي العربية لليهود، وتشكيل حكومة وطنية ديمقراطية مستقلة، ووقف أعمال القمع التي كانت تمارسها سلطات الإنتداب البريطاني ضد المواطنين العرب. وكان رئيف يتنقل مع آخرين من زملائه في المدن والقرى ويخطب في الجماهير محرضاً على الإندماج في الإنتفاضة ضد المستعمرين البريطانيين وضد الصهاينة وضد المتعاونين معهم من العرب. لكنه عاد بعد انفجار الثورة إلى لبنان ليتابع مهنة تدريس الأدب العربي، وليكمل نشاطه الثقافي والسياسي في قلب الحركة الوطنية اللبنانية والعربية. إنضم إلى أسرة تحرير مجلة "الطليعة" التي كانت قد بدأت بالصدور في عام ١٩٣٥. بعد عودته من فلسطين دخل رئيف في مرحلة ثانية من عمله الأدبي والفكري والسياسي هي مرحلة النضوج. وتوَّج تلك المرحلة بإصدار كتابه "جهاد فلسطين" بتوقيع "الفتى العربي"، الذي تضمَّن برنامجاً للنضال الوطني ضد السيطرة الإستعمارية ولمناهضة الحركة الصهيونية ومشاريعها في فلسطين. كما تضمَّن الكتاب عرضاً لتطور الإنتفاضة الفلسطينية في مراحلها المختلفة. وينهي رئيف الكتاب بالنداء التالي الموجَّه إلى العرب جميعاً من أجل نصرة الشعب الفلسطيني. يقول رئيف في ندائه:

" إيه ايها العربي

باسم ماضيك العظيم الذي هو واحد مع ماضي أخيك العربي.

باسم مستقبلك الذي هو أهم لك من الماضي وأعظم.

أسرع وقِفْ إلى جانب أخيك في نضال مشترك ضد الإستعمار البريطاني الذي ينهش فلسطين مثل الوحش.

أحرم نفسك كمالياتها في سبيل من يريقون دماءهم في ساحة الجهاد التحرري الشريك.

إنَّك حين تساعد الفلسطينيين حتى يربحوا المعركة من الإستعمار لا تكون معنياً بشؤون بيت غيرك. إنك تكون معنياً بشؤون بيتك الخاص.

لتعش فلسطين العبوة الثائرة.

وليعش النضال العربي المشترك ضد الإستعمار البريطاني، الطريق أشد عقبة في سبيل وحدتنا وتحررنا.

ولتعش وحدة الأقطار العربية الحرَّة".

أصدر رئيف في العام ذاته ملحمته الشعرية بعنوان "ثورة بيدبا" في صيغة حوار مسرحي من سبعة

فصول. وهو، إذ يستعير من التاريخ الهندي ومن كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع قصة الملك "دبشليم" مع الفيلسوف والحكيم "بيدبا"، فإنه يحاول بالرمز الوقوف عند الظاهرة ذاتها في الوطن العربي.

في المرحلة الثانية من حياة رئيف، مرحلة النضوج في مواقفه وآرائه وفي أعماله الإبداعية شعراً وقصة ورواية ونقداً أدبياً واهتماماً معمَّقاً بالتراث العربي، تحوَّل إلى شخصية ثقافية وسياسية مرموقة. تميَّزت بدايات تلك المرحلة في سلسلة من الكتب التي أصدرها وفي المحاضرات التي ألقاها في سوريا ولبنان. كما تمثَّلت في نشاطات سياسية ذات أهمية استثنائية عشية الحرب العالمية الثانية، كان هو من أبرز رموزها والمساهمين فيها. ويشكِّل كتابه "حقوق الإنسان" الصادر في عام ١٩٣٧ وثيقة سياسية تحررية كانت الأولى من نوعها في العالم العربي في تلك الحقبة. وتبرز أهمية هذا الكتاب في أن رئيف يطرح فيه لأول مرة بوضوح فكري وسياسي متقدم قضية لا يزال العالم منشغلاً بها حتى يومنا هذا. يضع رئيف غلافاً لكتابه صورة فوتوغرافية كتب عليها: "إعلان حقوق الإنسان والمواطن" التي أقرتها الجمعية الوطنية الفرنسية في عام ١٧٨٩، العام الذي قامت فيه الثورة الفرنسية التي غيَّرت مجرى تاريخ فرنسا والعالم. يستهل الكتاب بقول للخليفة عمر بن الخطاب "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً". ويتبع هذا الحديث بحديثين لكل من المستشرق الفرنسي "أرنست رينان" وللكاتب السوفياتي "مكسيم غوركي". ويستعرض في الكتاب حركة التاريخ والتطور الذي انتقلت فيه المجتمعات من حالة إلى حالة أرقى، ونشأت في ظل هذا التطور علاقات جديدة تحدد بموجبها نوع النظام الإقتصادي والإجتماعي الجديد. إلاَّ أنَّ أهم ما في الكتاب هو ما توصَّل إليه رئيف من خلاصات في خاتمته تتعلق بحقوق الإنسان في بلداننا. وأقتطف هنا بعض فقرات من هذا الفصل للدلالة على التقدم الذي كان بلغه فكر رئيف وهو في السادسة والعشرين من عمره: "... ضروري أن نجعل أمامنا قبل كل شيء حالة العالم الآن فيما يتعلق بحقوق الإنسان، وإن استدعى ذلك منا بعض التكرار، كي نستطيع على ضوء تقدير الموقف العالمي أن نكون على بيِّنة من قضيتنا التي نخطئ إذا حسبناها منعزلة، ولم نحسبها مشتبكة بمجرى الأمور في العالم سواء أشئنا أم أبينا. إذ العالم الآن، بفعل نضوج الثورة الصناعية الهائل، قد اقترب من بعضه كثيراً وأصبح مرتبطاً كله بصلات قوية حتى لتكاد تتأثَّر كل زاوية منه بما يحدث في الزاوية الأخرى تأثُّراً مباشراً أو غير مباشر... نحن أبناء لبنان وسوريا وفلسطين والعراق ومصر، وكل قطر من هذه الأقطار التي تنطق العربية الجميلة ويجمعها اسم الشرق العربي، نقع في صف خاص بين الأمم التي توسم بالضعيفة وتشمل سلسلة قوميات على درجات مختلفة من القوة والتطور كالصينيين والهنود والأحباش الخ. ولكنها جميعاً، إما مهضومة الحقوق هضماً كاملاً، أو مقيَّدة الإرادة بنفوذ أجنبي عامله السياسة أو الإقتصاد أو المركز الجغرافي... لنا سبيل هو الديمقراطية، ولو بشكلها البورجوازي زمان كانت البورجوازية ثورية تقدمية، وقبل

أن أصبحت رجعية كما هي اليوم في عهدها الرأسمالي الإحتكاري تريد افتراس الديمقراطية، وإعلان الديكتاتورية الفاشستية... في ظل الديمقراطية تعيش للمواطنين حقوق وحريات هي حقوق وحريات الإنسان التي ما زلنا نتكلم عنها، والتي هي حيوية جداً لصمودنا ونجاحنا في كل ناحية من نواحي حياتنا. لأن الحريات هي بمثابة منافذ بروز لقوى نشاطنا المكبوحة التي كبحها الإستعمار المستبد، يسد منافذ بروزها عليها آناً بالسلاح وآناً بغيره... يجب أن يكون لنا الآن شعار واحد هو الديمقراطية سواء أكنا من الذين يؤمنون بالوحدة السورية أو بالانفصال، بالوحدة العربية أو باحتفاظ كل قطر عربي مشكَّل من كيان خاص. إن خصوماتنا حول هذه الأمور لجديرة بأن تنحط إلى خصومات حول الجغرافيا، فضلاً عن أن الديمقراطية كفيلة بفض مشاكلنا. إنَّ نشأة على قواعد ديمقراطية صحيحة ينشأها لبنان وسوريا، وتؤمن لكل عضو من المجتمع السوري واللبناني حقوقاً وحياة ديمقراطية مطلقة متساوية، وتوجد مستوى متناسباً متلائماً تكون هي عاملاً حاسماً في محو عدم الثقة من النفوس وبذر بذور الإلفة، وتكون بمثابة حجر الأساس لبناء مشترك يبنيه البلدان بتعاون حر وإخاء... ولذلك فإنَّ تربية على قواعد ديمقراطية صحيحة.. تترباها الأقطار العربية كلها، وتضمن لكل فرد منها حقوقاً وحريات ديمقراطية مطلقة متساوية، وتقارب بين درجات تطورها، تكون هي أمتن رابطة تربط هذه الأقطار وتسهِّل عليها تفاهماً واتحاداً ديمقراطياً في المستقبل يتخذ أشد الأشكال موافقة للظروف التي يتحقق فيها...".

في عام ١٩٣٨ ذهب رئيف إلى نيويورك لحضور "المؤتمر العالمي للشباب" ممثِّلاً الشبيبة الديمقراطية في البلدان العربية. وخاض في ذلك المؤتمر معركة ضد الصهيونية والمؤيدين لها، ورفع راية الدفاع عن القضية الفلسطينية مطالباً بجلاء القوات البريطانية عن أرض فلسطين، وداعياً إلى إقامة دولة فلسطينية عربية ديمقراطية يتمتع فيها اليهود بحقوق المواطنة كاملة. وأرفق موقفه من القضية الفلسطينية وموقفه من الحركة الصهيونية بموقف واضح من النازية والفاشية اللتين كانتا قد ظهرتا في شكل خطير سرعان ما قادتا العالم إلى حرب كونية جديدة بعد عام من تاريخ إنعقاد المؤتمر المشار إليه. ولدى عودة رئيف من ذلك المؤتمر وكانت مواقفه قد سبقته إلى الوطن، جرى له استقبال حاشد في بيروت.

في تلك الفترة بالذات التي اشتدت فيها حمّى الحرب وبرزت إلى الوجود مخاطر حقيقية من نوع ما كان يجري في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية من إعداد للحرب، تأسست في لبنان "عصبة مناهضة الفاشية" انتخب المهندس أنطون ثابت رئيساً لها. وعقدت مؤتمرها الأول في شهر أيار من عام ١٩٣٩ قدم فيه رئيف باسم اللجنة التحضيرية تقريراً شاملاً حول شعارات "العصبة" وأهدافها. وفي عام ١٩٤١، وبعد أن كانت الحرب قد اندلعت، أصدر رئيف في دمشق بالاتفاق مع الحزب الشيوعي مجلة

"الدفاع" التي لم تعش طويلاً. وكانت تلك المجلة بمثابة تمهيد لصدور مجلة "الطريق" في أواخر ذلك العام. وشارك في أول هيئة تحرير للمجلة إلى جانب رئيف كل من الأديب عمر فاخوري والمؤرخ يوسف إبراهيم يزبك والأستاذ الجامعي السوري كامل عياد والصحافي السوري قدري قلعجي، إضافة إلى مؤسسها أنطون ثابت.

كانت فترة الأربعينات من أخصب فترات حياة رئيف إنتاجاً أدبياً وفكرياً، تميَّزت خصوصاً بكتاباته التي هدف منها إلى إحياء التراث العربي. إلاَّ أنَّ أهم ما صدر له من كتب في تلك الفترة هو كتاب "الفكر العربي الحديث وأثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي" قدّم له عمر فاخوري. حاول رئيف في كتابه هذا أن يقرأ بعناية فائقة أحداث الثورة الفرنسية، من خلال قراءة الفكر الذي مهَّد لها وقراءة أحداث ذلك الزمان، ثم من خلال ما تركته الثورة من تأثيرات على مجرى الأحداث في القرن اللاحق في فرنسا وفي أوروبا وفي العالم العربي. وفي فاتحة الكتاب يلفت رئيف نظر القارئ إلى المعنى الذي تحمله كلمة ثورة. فلا يخلط بين المعنى الذي تشير إليه أحداث الثورة الفرنسية وبين غيره من المعاني. فهو يصر، حين يستعرض أحداث الثورة ووقائعها، على اعتبار الثورة الفرنسية حدثاً تاريخياً من نوع جديد لا ينتهي بانتهاء الوقائع المرتبطة بها. بل إن التاريخ سيظل يتواصل ويتكامل ويتفاعل، بصورة لا نهائية، وسيظل يترك تأثيره في كل الإتجاهات حقبة إثر حقبة. ويلاحق رئيف هذا التأثير الذي مارسه ذلك الحدث التاريخي الإستثنائي في سيرورته إلى أن يكشف بنظرة ثاقبة مدى التأثير الذي مارسته الثورة الفرنسية بقيامها وبتطورها في المفكرين العرب المعاصرين، وفي قادة حركة النهضة العربية المعاصرة منذ أواسط القرن التاسع عشر حتى أواسط القرن العشرين. ولم يفته، وهو يبرز هذه المؤثرات للثورة الفرنسية بقيمها وبشعاراتها وبالأفكار الجديدة التي ارتبطت بها، أن يلحظ نقطة التقاطع عند عدد من المفكِّرين الأكثر تقدماً بين أفكار الثورة الفرنسية وأفكار الإشتراكية، الطوباوية منها والفوضوية والعلمية على حد سواء. ولم يغفل رئيف الإشارة الواضحة إلى الطموح الجارف عند مفكري عصر النهضة إلى الإستقلال عن السلطنة العثمانية، بالمعنى القومي للكلمة وبالمعنى الحضاري والاجتماعي. فقد كان أولئك المفكِّرون يطمحون إلى تشكيل دولة قومية عربية مستقلة مفتوحة على التقدم الحضاري.

ولرئيف خوري في الكتاب اجتهاد في تحديد موقع الفكر ودوره وأثره في الثورة. فهو، إذ يستعرض حركة الفكر في القرنين السابع عشر والثامن عشر في فرنسا التي مهَّدت للثورة الفرنسية، يقدم تصوره الخاص لدور الفكر يرجح فيه الرأي الذي يقول بأن حركة التاريخ إنما تسير على الدوام، وإن في شكل متعرج، في اتجاه إحلال الجديد الذي ينولد محل القديم الذي يشيخ. ولدى استعراض رئيف لدور المفكِّرين الذين سبقوا قيام الثورة الفرنسية والذين رافقوا قيامها وأسهموا فيها، يفرِّق بوضوح بين

نوعين منهم، بين فولتير ومونتسكيو وروسو ودولباخ وآخرين على تعدد وتنوع واختلاف أفكارهم ومفاهيمهم الثورية الإصلاحية العامة، وبين ديدرو وسان جوست وبابوف وروبسبيير ومارا الذين مثلوا الإتجاه الراديكالي في الثورة. ففي حين يرى رئيف أن الأولين يحملون أفكاراً إصلاحية ثورية، يرى بالمقابل أن الآخرين قد تجاوزوا بفكرهم حدود المرحلة التي عبَّرت عنها الثورة الفرنسية لدى قيامها إلى ما هو أكثر تقدماً، أي إلى ما جاءت أفكار الإشتراكية فيما بعد لتعبّر عنه في الدعوة إلى الحرية والتقدم والعدالة الإجتماعية، مقرونة بإلغاء استغلال الإنسان للإنسان. وهو يشير بوضوح إلى بدايات حديث عند أولئك الثوار عن الطبقات وعن الإنقسام الطبقي وعن الإستغلال الطبقي. لكنه يتوقف، بدقة وبعمق وبتفصيل، عند المضامين الثورية الإصلاحية لأفكار مونتسكيو في "روح الشرائع" وعند أفكار روسو في "العقد الإجتماعي".

عندما ينتقل رئيف إلى الفصل المتعلق بمجاري الثورة إلى الشرق يتنبَّه إلى الدور المزدوج المتناقض لحملة نابليون في مصر. فهو لم يتخذ منها موقفاً سلبياً. بل اعتبر، في شكل موضوعي، أنها أدخلت إلى مصر عناصر التغيير التي جعلت من هذا البلد العربي دولة قومية مفتوحة على الحضارة الأوروبية وعلى أفكار الثورة الفرنسية تحديداً. الأمر الذي أعطى لمحمد علي أولاً، ثم لإبنه إبراهيم من بعده بنظر رئيف، رغم انتمائهما غير العربي، موقع القادة العرب الطامحين إلى توحيد الأمة العربية، بالعمل من أجل تحريرها من السيطرة العثمانية. لكن رئيف لحظ، في الوقت ذاته، قيام حركات فلاحية شعبية معادية للظلم في الجبل اللبناني، كان أولها موجهاً ضد ابراهيم باشا، وكان آخرها بقيادة طانيوس شاهين موجَّهاً ضد الإقطاع. غير أن رئيف في قراءته للعاميات الشعبية في لبنان رأى أنها لم تكن حركات شعبية فقط بالإسم الذي حملته، بل أيضاً بالمطالب والشعارات التي رفعتها وبأشكال النضال والتنظيم التي اتسمت بها. وكانت تلك الحركات على بساطتها ومحدوديتها تعبِّر، برأي رئيف، عن مدى الأثر الذي تركته في الجماهير الفلاحية اللبنانية شعارات الثورة الفرنسية ومعاركها، والمطامح التي حملتها للمضطهدين في العالم بالتحرر من الإستعباد، وبإقامة العدالة والمساواة. وأظن أن رئيف كان مغالياً بعض الشيء في استنتاجاته تلك.

وكما تنبَّه رئيف إلى الإختلاف لدى المفكرين الفرنسيين الذين مهّدوا للثورة ونظّروا لها وساهموا في صياغة شعاراتها وشاركوا في قيادتها بين ثوري إصلاحي وبين راديكالي اشتراكي، كذلك رأى بوضوح المستويات المختلفة للتأثير المباشر لأفكار الثورة الفرنسية على بعض المفكرين العرب، التأثير الذي يتجاوز حدود ما هو معلن من تلك الأفكار وما هو أكثر تقدماً لدى مفكرين آخرين. وهكذا اكتشف الفرق بين الطهطاوي، الرائد الطليعي في التأثر بأفكار الثورة الفرنسية وفي نقل هذه الأفكار إلى مصر، وعبد الله النديم من جهة، وبين الكواكبي وشبلي الشميل خصوصاً الذي برزت في أفكاره بذور تأثر

واضح بأفكار الإشتراكية من جهة ثانية.

عندما تعرفت إلى رئيف خوري في عام ١٩٤٩ بالمراسلة أولاً ثم بالالتقاء به في "دار المكشوف" في بيروت بحضور مارون عبود وفؤاد حبيش وخليل تقي الدين، إستقبلني رئيف بحرارة وعرفني إلى الأدباء الذين كانوا جالسين يتسامرون. إستمعت إلى أحاديثهم بشغف وبإستمتاع. وكان أكثرهم ظرفاً مارون عبود الذي أذكر أنه كان يستهدف رئيف في المزاح معه. فردد بيتاً من الشعر لشاعر القطرين خليل مطران مأخوذاً من قصيدة له في رثاء عمر فاخوري مطلعها: حق لبنان فخر/ بارك الله في عمر. ثم أردف متوجهاً إلى رئيف بإعتباره أديب الفقراء قائلاً على وزن قصيدة خليل مطران: حق لبنان في الرغيف/ بارك الله في رئيف. وكان رئيف قد نشر لي بعض كتاباتي في الصفحة الثقافية لجريدة "التلغراف" التي كان يشرف عليها، عندما تعرفت إليه كانت قد حدثت القطيعة بينه وبين الحزب الشيوعي. ولهذه القطيعة قصة تتلخص في أن رئيف ومعه عدد من مثقفي الحزب وأصدقائه قد اختلفوا مع قيادة الحزب في الموقف من قرار تقسيم فلسطين، متضامنين بذلك مع أحد قادة الحزب الأساسيين فرج الله الحلو. وشكلوا حركة باسم "أخوان عمر فاخوري" ضمت إميلي فارس ابراهيم وهاشم الأمين الذي كان قبل ذلك عضواً في اللجنة المركزية للحزب، وقدري قلعجي الذي كان قبل ذلك رئيساً لتحرير مجلة الطريق، وموريس كامل. والمعروف أن فرج الله الحلو كان قد تحفظ على قرار تقسيم فلسطين الذي كانت قيادة الحزب الشيوعي قد وافقت عليه انسجاماً مع موقف الإتحاد السوفياتي. فأدين فرج الله بسبب موقفه وأخرج من موقعه في قيادة الحزب بشكل متعسف. وفي حين اضطر فرج الله إلى كتابة رسالة نقد ذاتي خوفاً من أن يطرد من الحزب أصرَّ رئيف خوري ورفاقه على موقفهم. فاتخذ الحزب موقفاً منهم بطرد مَن كان عضواً رسمياً في الحزب وإعلان التبرؤ من العلاقة مع الآخرين. واتهم رئيف وأخوانه بالتيتوية. اخترت يومذاك أن أقف إلى جانب مجموعة "أخوان عمر فاخوري" بصفتي الشيوعية. إذ كنت قد أصبحت شيوعياً في العراق في مطلع عام ١٩٤٨. وصرت أزور رئيف في منزله لأستمتع بأحاديثه، ولأطرح عليه أسئلة كنت بحاجة إلى أجوبة منه عنها تتعلق بالأدب وبأمور فكرية وسياسية مختلفة. كما كنت أحضر الإجتماعات التي كانت تتم في منزل إميلي فارس ابراهيم شقيقة الأديب فيلكس فارس وفي منزل قدري قلعجي.

في أواخر عام ١٩٥٢ جاءني صديقي نديم عبد الصمد يطلب مني الإنضمام إلى الحزب الشيوعي بعد أن كنت قد انتخبت في الجامعة اللبنانية نائباً لرئيس أول رابطة لها بصفتي الشيوعية من دون أن أكون عضواً في الحزب. وكان الرئيس المنتخب للرابطة فؤاد الترك الذي دخل بعد تخرجه من الجامعة في السلك الدبلوماسي وصار واحداً من كبار صانعي السياسة الخارجية اللبنانية في ذلك الزمن. ترددت في الإستجابة لطلب صديقي نديم، مبرراً موقفي بأنني لا أستطيع أن أكون عضواً في حزب لا يعرف قيمة

المثقفين من أمثال رئيف خوري، ولا يحترم حتى حقهم في التعبير عن آرائهم وعن مواقفهم. طلب مني نديم أن أفكر قائلاً لي فيما يشبه دغدغة لمشاعري بأن قضية رئيف وأصدقائه ستجد حلاً سريعاً، وأن قضية فرج الله الحلو هي قيد المعالجة وهي في طريقها إلى الحل. ذهبت إلى رئيف لأستشيره. فطلب مني فيما يشبه الأمر بألا أتردد في الإنتساب إلى الحزب. إذ اعتبر أن الحزب ضرورة وطنية، وأن الخطأ الذي تتخذه قيادته يمكن أن يصحح. وقال لي بأن مستقبلي هو في داخل الحزب وأن عليّ أن أناضل من داخله لتصحيح الأخطاء التي ارتكبها أو يمكن أن يرتكبها قادته. أكبرت موقف رئيف وإزددت تقديراً لفكره ولدوره الريادي. وعدت على الفور إلى صديقي نديم وقدمت طلباً خطياً للانتساب إلى الحزب وضعت فيه ملخصاً مكثفاً لأفكاري. فرح نديم. وفاجأني بعد أقل من أسبوع بأنني أصبحت عضواً في الحزب وأن قيادة الحزب وعلى رأسها خالد مكداش كانت معجبة برسالتي التي قدمت فيها طلب الانتساب. وتسارعت الأحداث وعينت عضواً في الهيئة المشرفة على منظمة الطلاب الشيوعيين، ومسؤولاً في قيادة "إتحاد الطلاب العام"، المنظمة الديمقراطية التي كان قد أسسها الحزب، كما عينت مسؤولاً عن إصدار النشرة الطلابية بعنوان"إتحاد الطلاب". وحين عدت إلى رئيف لأخبره بكل هذه الأمور كان شديد الفرح وشجعني على الاستمرار في العمل محتفظاً بمواقفي. ولم يمض عام على ذلك حتى عاد فرج الله الحلو إلى موقعه القيادي في الحزب وعادت العلاقة بين رئيف والحزب، لكن على أسس مختلفة عن الزمن السابق.

كان رئيف مثقفاً متعدد ميادين المعرفة ومتعدد ميادين الإبداع الأدبي والفكري. ولأن التدريس كان مهنته منذ أن تخرَّج من الجامعة في مادة الأدب العربي وآداب الشرق، فقد كانت كتاباته الأدبية هي الأكثر اهتماماً عنده في مجال إصدار الكتب، تأليفاً وترجمة واقتباساً. وكان همّه في كل كتاباته الأدبية أن يؤكد على أن الأدب هو عمل مسؤول وأن الأديب هو حتماً مسؤول عما يكتب. وإذا كانت المواضيع التي كان يكتبها للصحف اللبنانية والعربية، وهي عديدة لا تحصى، قد تمحور معظمها حول شعاره المعروف "إن الأدب كان مسؤولاً"، فإن المناظرة التي جرت بينه وبين طه حسين بمبادرة من سهيل ادريس صاحب مجلة "الآداب" في قصر الأونيسكو في بيروت في عام ١٩٥٥، قد شكلت محطة مهمة في الجدل حول هذه المسألة. كان البادئ في إثارة النقاش رئيف خوري الذي كان يرد على مواقف طه حسين التي يقول فيها بأن الأدب للخاصة، فيقول رئيف بأنَّ الأدب للعامة. وكان الحوار طريفاً. لكنه لم يكن يرمي، ولا كان باستطاعته أن يرمي، إلى حسم الجدل في تلك المسألة. وكان الفرق بين كل من رئيف خوري وطه حسين، في حياتهما وفي نشأتهما وفي علاقاتهما بالشأن العام، عاملاً أساسياً في عدم التمكن من الوصول إلى توافق بين رؤيتيهما لوظيفة الأدب. ذلك أن رئيفاً كان شديد الإلتزام بالقضايا العامة حتى بعد أن اختلف مع الحزب الشيوعي. وتشير المجموعة الكبيرة من كتاباته

السياسية إلى أنه كان مهموماً إلى الحدود القصوى بكل ما يتعلق بقضايا بلاده وأمته، كما لو أنه قائد في حزب أو مسؤول في دولة. في حين كان طه حسين على الدوام مثقفاً مستقلاً عن أي التزام. وكان أكثر حرية في التعبير عن التزامه بالقضايا الوطنية العامة.

ولعلَّ أمتع ما يمكن أن يقرأه الباحث في التراث العربي هو كتابات رئيف خوري، سواء في أبحاثه الأكاديمية أم في رواياته وقصصه ومسرحياته التي استقى عناصرها وشخصياتها وأحداثها من التاريخ العربي. وقد قرأت جميع كتبه تلك. وكان من أمتع ما قرأت منها بشغف روايته الوحيدة "الحب أقوى"، التي استوحى موضوعها وأحداثها من التاريخ العربي القديم. وما تزال كتبه جميعها وكثير من كتاباته يحتل مكاناً مميزاً في مكتبتي. وأشير هنا إلى بعض الكتب التي لم يرد ذكرها في هذا الحديث المكثف عن رئيف: "العرب في التاريخ والأسطورة" و"ديك الجن" و"عمر ابن أبي ربيعة" ونصوص مسرحية في كتابيه "مجوسي في الجنة" و"صحون ملونة".

رئيف خوري، في معرفتي به وفي اطلاعي على الأساسي مما نشر من كتبه وكتاباته، يمثل نموذجاً فذاً بين المثقفين العرب. كان، وهو اشتراكي في الفكر وفي السياسة وفي الإلتزام، قومياً عربياً بالمعنى الواقعي والرومانسي للمفهوم وبالمعنى الديمقراطي تحديداً. كان كل ما في العالم العربي يهمه ويؤرقه. وكان يرى في الوحدة العربية خلاص الأمة. لكنه كان بالقطع ضد كل الصيغ التي ساهمت في تعطيل تحقيقها، الصيغ التي استندت إلى القسر والإكراه والقمع، ولم تأخذ في الإعتبار حقوق الشعوب وحقوق الأفراد، بل تجاوزتها في شكل متعسف. وقد جاهر رئيف بمواقفه في كل المناسبات، بما في ذلك في لقاء جرى مع الرئيس عبد الناصر في القاهرة بحضور عدد من المثقفين العرب، عندما أعلن استهجانه لاعتقال المفكِّر العربي الليبرالي لويس عوض، ودعا إلى إطلاق سراحه باسم حرية الفكر كقضية مقدَّسة.

في حوار رئيف مع كتاب قسطنطين زريق "الوعي القومي" الذي نشره في كتاب بعنوان "معالم الوعي القومي" إشارات واضحة إلى مفهومه كقومي عربي إشتراكي التوجه للمسألة القومية في عالمنا العربي. ففي هذا النقاش مع زريق يوحد رئيف بين انتمائه إلى الإشتراكية كفكر وكمشروع سياسي للمستقبل، وبين انتمائه العميق إلى القومية العربية انتماءاً متحرراً من العصبيات استند فيه وفي مفهومه للعروبة الحديثة وللوحدات القومية إلى تجارب الشعوب التي سبقتنا إلى بناء دولها وإقامة وحداتها على أسس ديمقراطية حديثة.

ذلك هو رئيف خوري الأديب والمفكر الإشتراكي والقومي العربي الديمقراطي، في معرفتي به وفي قراءتي لتراثه الفكري والأدبي. وكم سعدت عندما بدأت عائلته بنشر تراثه كتاباً إثر كتاب.